وقلت لسيدنا يا حليم ... انك لم تأس اسوا رفيقا

واما القليل الوارد بصورة التكثير فنحو قولك كم بطلا قتل زيد وكم ضيف نزل عليه وانت تريد انه لم يقتل بطلا قط ولا قرى ضيفا ولكنك تقصد الاستهزاء به كما يقال للبخيل يا كريم وللاحمق يا عاقل. واما التكثير الوارد بصورة التقليل فنحو قولك رب ثوب حسن قد لبست ورب عالم قد لقيت فتقلل ما لبست من الثياب ومن لقيت من العلماء تواضعا ليكون اجل لك في النفوس لان الرجل اذا احقر نفسه تواضعا ثم اختبر فوجد اعظم مما وصف به نفسه عظم في النفوس. واذا تعاظم وانزل نفسه فوق منزلتها ثم اختبر فوجد اقل مما قال استخف به وهان على من كان يعظمه. وقد يستعمل تقليل الشيء وهو كثير في الحقيقة لضروب من الاغراض والمقاصد كالرجل يهدد صاحبه فيقول لا تعادني فربما ندمت. وهذا مكان ينبغي ان يكثر فيه الندامة وليس بموضع تقليل. وانما تاويله ان الندامة على هذا لو كانت قليلة لوجب ان يتجنب ما يؤدي اليها فكيف وهي كثيرة فصار فيه من معنى المبالغة ما ليس في التكثير لو وقع ههنا. ومن هذا قول الله تعالى ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. وقد توهم قوم ان رب للتكثير حتى خفي عليهم ما ذكرناه من تداخل المعاني وهذه غفلة شديدة لانا نجد المدح قد يستعمل في موضع الذم. والذم قد يستعمل في موضع المدح ولا يخرجهما ذلك عن موضوعهما الذي وضعا عليه في اصل وضعهما كما ان العلم الذي وضع في اصل وضعه للخصوص قد يعرض له العموم والنكرة التي وضعت في اصل وضعها للعموم قد يعرض لها الخصوص

لا يبطل ذلك وضعهما

ولا يبطل ذلك وضعهما الذي وضعا عليه اولا وانما ذلك لكثرة المعاني وتداخلها واختلاف الاغراض وتباينها. فمتى وجدت شيئا قد خالف اصله فانما ذلك لسبب وغرض فيجب ان تبحث عليه. فمن مشكل هذا الباب قول ابي بكر الهذلي

ازهير ان شئت القتال فانني ... رب هيضل مرس لففت بهيضل

ورب ههنا مخففة من رب وقول ابي عطا السندي

فان يمس مهجور الفناء فربما ... اقام به بعد الوفود وفود

والمراد بهذين البيتين التكثير ولكن خرجا مخرج التقليل ليكون امدح للمعنى لان هذا لو كان قليلا لكان فيه فخر لصاحبه فكيف ظنك به وهو كثير ويحتمل قول ابي عطا ان يكون المراد به تقليل مدة حياة المرثي التي كثرت فيها عليه الوفود. فعلى نحو هذه التاويلات فتاول ما ورد مخالفا للاصول وملاك هذا الباب معرفة المجاز والحقيقة وهو باب يدق على من لم يتميز بهذه الصناعة فلذلك ينكر كثيرا مما هو صحيح.

ولله در ابي الطيب المتنبي حيث يقول

وكم من عائب قولا صحيحا ... وآفته من الفهم السقيم

ولكن تاخذ الاذان منه ... على قدر القرائح والعلوم

ومن ظريف المجاز العارض من طريق التركيب ايقاعهم ادوات المعاني على السبب ومرادهم المسبب تارة وتارة يوقعونها على المسبب ومرادهم السبب وانما يفعلون هذا لتعلق احدهما بالاخر. فمثال الاول قوله تعالى فلا تموتن الا وانتم مسلمون فاوقع النهي على الموت في اللفظ والموت ليس بفعل لهم فيصح نهيهم عنه وانما نهاهم عن مفارقة الاسلام فمعناه لا تفارقوا الاسلام حتى تموتوا عليه واوقع النهي عن الموت لانه

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)